مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد الثالث - العدد العاشر (١٩٩٦) . خليل عودة

المستوى الدلالي للأداة في التشبيه

د. خليل عوده *

The Semiotics of Comparative article

Dr. Khalil Odeh

ملخص

يتناول البحث موضوعا بلاغيا يتعلق بأداة التشبيه ، من حيث مستواها الدلالي وعلاقتها بطرفي التشبيه (المشبه والمشبه به) ، ويكشف - بشكل خاص - عن دورها في اثراء الصورة التشبيهية، وابراز علاقتها بنفسية المبدع ، والدوافع الكامنة وراء استخدام أداة بعينها من أدوات التشبيه .
وقد حاولت من خلال الدراسة تجاوز نظرة القدماء الى التشبيه ودور الأداة فيه على أنها مجرد واسطة بين طرفين حسيين أو عقليين ، وأنها قد تذكر فيسمى التشبيه مرسلا ، أو تحذف فيسمى مؤكدا ، دون أن يكون لوجودها أو نوعها أثر في ابراز المعنى الخاص الذي تؤديه في ابراز جماليات الصورة التشبيهية ، وعلاقة الأطراف المشكلة لها بالمبدع من ناحية ، والمعنى من ناحية أخرى .

ABSTRACT

This paper discusses the denotation of the comparative article in a simile. It tries through representation of the points of view of the old and modern researchers to state relationships between the comparative article to the total meaning. This is to be taken in addition to the role it plays in the simile itself. Various studies have shown different roles of the comparative article in two respects: one is it's identity, and the second is the relationship of the comparative article to the constituets of the simile itself .

---

* استاذ مساعد ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب / جامعة النجاح الوطنية .

أهداف البحث :

يهدف البحث الى دراسة وضع الأداة في التشبيه ، من حيث علاقتها بالصورة التشبيهية ؛ فقد لاحظت من خلال دراستي للتشبيه أن البلاغيين العرب قد ركزوا على المشبه والمشبه به ، ولم يعطوا الأداة اهتماما معينا في دراستهم للتشبيه ، واكتفوا – في الغالب– بملاحظات شكلية تحدد نوع الأداة ، وذكرها أو حذفها في التشبيه .

وقد حاولت من خلال دراستي تحقيق الأهداف الآتية:

١– توضيح الفرق بين استخدام (الكاف) و (كأن) – على أساس أنهما أكثر أدوات التشبيه استخداما – على مستوى التشبيه، وعلاقتها بالمستوى النفسي والانفعالي الذي يكون عليه الأديب.

٢– ان أداة التشبيه لا توجد لمجرد عقد مقارنه بين شيئين يشتركان في مجموعة من الصفات ، وانما هي جزء أساسي في عملية التشبيه ، لها دلالتها الواضحة في العلاقة القائمة بين المشبه والمشبه به ، ولها دورها في تحديد علاقة الأ ديب بالعناصر التي يشكلها .

٣– يهدف البحث الى محاولة رصد أدوات التشبيه في عمل فني ما ، ثم ملاحظة سبب الحاح الأديب على نوع معين من أدوات التشبيه ، وسر هذا الالحاح، مما يشكل أساسا لدراسة أسلوبية تقوم على تحليل الظواهر الفنية في النص الأدبي .

منهج البحث :

يعتمد البحث منهجين للدراسة : أولهما المنهج التاريخي ويتناول دراسة أداة التشبيه في كتب البلاغة العربية القديمة ، ونظرة البلاغيين لوظيفة الأداة وفق مقاييسهم البلاغية التي ركزت – في الغالب على شكل التشبيه ، وتعاملت مع وظيفة الاداة وفقا لاعتبارات خاصة بالمشبه او المشبه به ، ونوع كل منهما.

اما المنهج الثاني فهو منهج تحليلي يقوم على المستوى الدلالي للأداة، وفي هذا المجال يمكن ملاحظة نوع الأداة التي يستخدمها الاديب وعلاقة ذلك بالحالة النفسية

والشعورية التي يكون عليها، وهذا يعني وجود علاقة ما بين الصورة التي تمثلت في نفس الاديب ، وعملية تشكيلها ، ويأتي اختيار الاداة وفق هذه العلاقة ، مما يفسر سبب الحاح الاديب على أداة بعينها في تشبيهاته ، او استخدام أداة ما في موضوعات معينه قد لا يكون استخدامها مناسبا في موضوعات اخرى .

وقد حاولت من خلال المنهج التحليلي ، ان ابين الفرق بين نظرة القدماء الشكلية للأداة وبين نظرتنا نحن التي تحدد دورها من خلال تحليل علاقتها بشيئين : أولهما، العناصر التي يتشكل منها التشبيه ، وثانيهما الحالة النفسية والشعورية التي تصاحب عملية التشبيه ، واختيار نوع الاداة .

وفيما يتعلق بالمنهج التاريخي فقد حددت اطاره في كتب البلاغة العربية القديمة التي تناولت هذا الموضوع حتى نهاية القرن الثامن الهجري .

١- الأداة في التشبيه :

التشبيه هو " الدلالة على مشاركة أمر ، لآخر في معنى"(١) أو " صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبة مناسبة كلية لكان اياه".(٢)وهذه المشاركة أو المقاربة تعتمد طرفين يتم بوساطتهما تحقيق فكرة الالتقاء والتقارب ؛ وهذان الطرفان هما المشبه والمشبه به ، وهما الركنان الاساسيان في

والواسطة التي تحقق التقارب بين طرفين مختلفين في عملية التشبيه هي الأداة، التي قد تذكر أو تحذف ، ولكنها تظل موجودة ، اما على مستوى شكل التشبيه،أو

١- الخطيب ، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني : الايضاح في علوم البلاغة ، شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، ط دار الكتاب اللبناني - بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م، ٣٢٨/٢.

٢- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق : العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وشرح الدكتور مفيد محمد قميحة . ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ١٩٩/١.

على مستوى المفهوم العام ؛ وفي كلتا الحالتين لا تغير من طبيعة الركنين اللذين يشكلان محور عملية التشبيه . فالتشبيه يقوم على تناسب ظاهري بين أشياء مختلفة في عالم الحس أو العقل ، دون أن يؤثر التشبيه على جوهر هذه الاشياء أو يغير من طبيعتها . عملية التشبيه ؛ اذ لا تتحقق بدونهما الفكرة التي يقوم عليها التشبيه و" لا يخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفين، مشبها ومشبها به، واشتراكا بينهما من وجه وافتراقا من آخر .(٣)

فالأداة قائمة في التشبيه مع طرفيه المشبه والمشبه به ، سواء ذكرت أم حذفت ، لأن حذف الأداة لا يلغي وجودها في النفس ، اذ لا معنى من وجود مشبه ومشبه به ، دون تمثل علاقة قائمة بينهما ، والذي يقيم هذه العلاقة هو الأداة ، فلو افترضنا وجود طرفين دون واسطة تربط بينهما ، لظل كل منهما مستقلا عن الآخر مثل كلمة (زيد) وكلمة (أسد) ، فالذي أدخل الكلمتين في دائرة التشبيه هو العلاقة التي أقامتها الآداة بين هاتين الكلمتين . وهذه العلاقة ليست علاقة توحد، وانما هي علاقة تمازج وتمايز ، فلا معنى من وجود علاقة بين شيئين متماثلين ، أو متشابهين من جميع الوجوه ، اذ " ان الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ، اذ كان الشيئان اذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة ، اتحدا فصار الاثنان واحدا " .(٤)فالمشبه اذا وضع ازاءالمشبه به، فان المشبه يظل مستقلا بذاته ، أو بمعنى آخر يظل طرفا غير قابل للتوحد مع الطرف الآخر ، وان اتفق معه في بعض المظاهر الشكلية وليس الجوهرية، والذي يحافظ على الحدود

٣- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي : مفتاح العلوم، ضبطه وشرحه الاستاذ نعيم زرزور ، ط دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ص٣٣٢.

٤- ابن جعفر ، أبو الفرج قدامة : نقد الشعر . تحقيق كمال مصطفى ، ط مكتبة الخانجي بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٣،ص ١٢٢.

الفاصلة بين الطرفين هو " الأداة" ، "فالأداة- في مثل هذا التصور - بمثابة الحاجز المنطقي الذي يفصل بين الطرفين المقارنين ، ويحفظ لهما صفاتهما الذاتية المستقلة. وحتى لو حذفت الأداة - على سبيل الاختصار والايجاز كما يقول ابن سنان ، أو على سبيل الايهام والمبالغة كما يقول عبد القاهر - فان المبدأ الأساسي يظل قائما ، ويظل طرفا التشبيه متمايزين تماما، لا تتداخل حدودهماالعملية والمنطقية ، لأن نية وضع الأداة والفصل بين الطرفين ، لا تنفصل بحال عن جوهرالمقارنة التي يقوم بها مفهوم التشبيه ".(٥)

والاصل في التشبيه أن تذكر الأداة ، وقد تحذف لاغراض دلالية لا علاقة لها بتركيب التشبيه " وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه وذلك قولك : زيد شديد كالأسد : فهذا القول الصواب في العرف وداخل في محمود المبالغة ، وان لم يكن زيد في شدته كالأسد على الحقيقة ".(٦) ومن هنا جاءت تسميتهم للتشبيه المحذوف الأداة دون وجه الشبه (مؤكدا) والمحذوف الأداة ووجه الشبه (بليغا)، وهو أقوى الكل (٧) وبذلك توجد علاقة بين الأداة وتركيب التشبيه ، فمع الأداة يظل طرفا التشبيه مستقلين ، ومع حذفها تشتد الصلة بين الطرفين ، بحيث يصبح المشبه متقاربا مع المشبه به حتى لكأنهما شيء واحد ، وعلى هذا يصل التشبيه الى مستوى من القوة لا يتحقق مع وجود الأداة ، وكأن الأداة توضع أو تحذف لتحدث (فقط) التقارب أو التباعد بين طرفي التشبيه ، فاذا حذفت زاد التقارب بين الطرفين ، فأصبح التشبيه أكثر بلاغة ، واذا ذكرت وقع تباعد بين الطرفين ، فقلت بلاغته ، دون أن يكون لذلك علاقة بطبيعة التشبيه ، أو ذات المبدع .

٥- عصفور ، جابر أحمد : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي - ط دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

٦- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل : الصناعتين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢م، ص ٢٣٩.

٧- السكاكي : مفتاح العلوم ، انظر ص ٣٥٥.

وأدوات التشبيه كثيرة منها حرفان ، هما : (الكاف وكأن) ، وهما أكثر أدوات التشبيه استعمالا ، وعليهما يدور الحديث ، ومنها أسماء نحو : (مثل - مثيل - شبيه - شبه - ضريب - مضاه - مساو ٠٠٠) وأفعال نحو : " يماثل - يحاكي - يشاكل - يضاهي- يساوي ٠٠٠ وكذا الماضي والأمر من هذه الأفعال .

وبالرجوع الى ألوان التشبيه ، نجد أن أدوات التشبيه من الأسماء والأفعال قليلة إذا ما قيست بالحرفين (الكاف وكأن) ، فهما أشبه ما يكونان بالأصل وسواهما بالفرع، وعلى كل فان أدوات التشبيه الأخرى اما أن تتبع (الكاف) أو (كأن).

والأصل في الكاف أن يأتي بعدها المشبه به ، أي تكون وسطا بين المشبه والمشبه به، وقد يكون المشبه به مفردا(٨) يتم به التشبيه نحو قوله تعالى : " وله الجواري المنشئآت في البحر كالأعلام(٩)،وقد يأتي مفردا لا يكتمل التشبيه به إلا إذا ركب مع غيره ، كقوله تعالى :"واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا".(١٠) فالمشبه ليس في كلمة الماء ، وانما في تركيبها مع عناصر أخرى ، تمثلت في صورة اخراج نبات الأرض ، ثم تحوله الى هشيم تذروه الرياح.

أما (كأن) فانها تأتي قبل المشبه ، سواء أكان مفردا أم مركبا ، أي أن المشبه والمشبه به يتجاوران في التشبيه ، كقوله تعالى : " كأنهن بيض مكنون".(١١)

وتأتي أدوات التشبيه الأخرى من أسماء وأفعال في مستويات مختلفة من التشكيل فمنها ما يستعمل استعمال (الكاف) بمعنى أن يأتي بين المشبه والمشبه به ، ومنها ما

٨- المقصود بالمفرد أن يستقل (المشبه به) بذاته

٩- سورة الرحمن ، الآية رقم ٢٤.

١٠- سورة الكهف ، الآية رقم ٤٥.

١١- سورة الصافات ، الآية رقم ٤٩.

يستعمل استعمال (كأن) أي يأتي قبل المشبه ، ولكنه لا يشترط فيه أن يأتي دائما قبل المشبه ، فيجوز أن نقول : يشبه زيد الأسد ، وزيد يشبه الأسد ،من دون أن يشترط - على نحو ماكان الأمر في كأن - أن تسبق الأداة المشبه دائما .

وفي كل الاحوال ، فان أداة التشبيه ، يتحدد مستواها الدلالي وفق شيئين : أولهما نوع الأداة، وثانيهما وضع الأداة من حيث علاقتها بالمشبه والمشبه به ، وما يترتب على ذلك من علاقات مع ذات المبدع الذي يشكل التشبيه وفق احساسه بالعناصر التي يتكون منها ، ومدى قربه أو بعده عنها.

٢- وظيفة الأداة في التشبيه عند البلاغيين العرب القدماء :

فقد ركز البلاغيون العرب في كتبهم البلاغية على نوع الأداة ووجودها في التشبيه، أو عدم وجودها ، بمعنى أنهم اهتموا بالناحية الشكلية للأداة ، وفقا لاهتمامهم بالناحية الشكلية للتشبيه بشكل عام . وكانت ملاحظاتهم تدور حول مستويات التشبيه الشكلية ، واعتمدوا في تقييمهم له على أمور تخضع للمنطق ، وليس للمستوى الفني فيه،فابو هلال العسكري يقيّم التشبيه من حيث جودته وبلاغته وفق أمور أربعة ، هي: اخراج ما لا تقع عليه الحاسة الى ما يقع عليه ، واخراج ما لم تجربه العادة الى ما جرت به العادة ، واخراج ما لم يعرف بالبديهة الى ما يعرف بها ، واخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوة فيه . (١٢).

وأحسن التشبيه من وجهة نظر قدامة ، هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدني بهما الى حال الاتحاد (١٣) وهي ملاحظات

١٢- العسكري : الصناعتين ، أنظر ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، وانظر الجرجاني ، عبدالقاهر : اسرار البلاغة في علم البيان ، ط مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ، ص١١٥- ١١٦ .

١٣- ابن جعفر : نقد الشعر ، ص ١٢٢.

تعكس فهمهم لطبيعة التشبيه من حيث تشكيله ، وعلاقة أطرافه بالمعنى، وكيفية تقديمه، فالتشبيه كما يقول أبو هلال " يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه " (١٤) ولم يوضح كيف يحقق التشبيه هذا الهدف ، وعما اذا كان التشبيه بعمومه يحقق ذلك، وبالمستوى نفسه في كل التشبيهات ، أم أنه يختلف من تشبيه الى آخر وفقا لتركيب التشبيه من حيث أطرافه وأداته ووجه الشبه فيه .

واعتمادا على وجهة النظر السائدة لديهم ، فان التنشبيه يقبح اذا كان يخالف المنطق المعمول به ، ويقل مستواه الفني اذا كان يعارض فكرة الشرح والتوضيح التي تطلب من التشبيه على نحو " من اخراج الظاهر فيه الى الخافي ،والمكشوف الى المستور ، والكبير الى الصغير". (١٥) واذا كان التشبيه يخضع لمثل هذه المقاييس الشكلية التي تنقل الصورة من غموضها الى شيء آخر يوضحها ، فان مقياس المتعة التي يحققها التشبيه بالنسبة للمتلقي يتمثل في احداث قدر كبير من الغرابة لديه عندما يتمثل عناصر متباعدة في الواقع يجمع بينها التشبيه في تركيب جديد، " وهكذا اذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد ، كانت الى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب، وكان مكانها الى أن تحدث الأريحية أقرب "٠ (١٦)وهذا التباعد يحدث متعة شكلية عند القاريء ، اذ يصل من خلال التشبيه الى ادراك علاقات بين أشياء متباعدة يجمع بينها التشبيه في صفات متقاربة " وهذه الصفات التي تدعم مفهوم المشابهة هي – في الغالب– صفات خارجيه لا تتصل بالقيمة النفسية للأشياء، أو بالمحتوى العاطفي للكلمات ، بقدر ما تتصل بالتناسب المنطقي بين الأطراف،والتطابق المادي بين العناصر.

١٤– العسكري : الصناعتين ، ص ٢٤٣.

١٥– المرجع السابق ، ص ٢٥٧.

١٦– الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ١٢٣.

ومن هنا كانت النظرة القديمة تهتم بالبحث عن مدى التطابق الخارجي بين أطراف التشبيه ، ومدى التناسب العقلي بين العناصر المقارنة". (١٧) وتتحدد متعة التشبيه من خلال البحث عن جوانب الالتقاء والتقارب بين عناصر التشبيه ، لهذا كان التشبيه المركب من أمور أكثر أبلغ ، لأن نيل الشيء بعهد الطلب ألذ(١٨).

وعند ملاحظة الأداة في مفهوم البلاغيين العرب عن التشبيه ، نلاحظ الحاحهم على وجود طرفين رئيسين في التشبيه هما المشبه والمشبه به ، ووجود واسطة تجمعهما هي (الأداة) وهي تحكم علاقتهما ، وعند ملاحظة هذه العلاقة بطرفي التشبيه على مستوى الشكل، نجد عبد القاهر الجرجاني يربط بين الأداة وطبيعة المشبه به من حيث التعريف والتنكير ، ويرى أن المشبه به بعد أداة التشبيه (الكاف ومثل) يكون في الأغلب معرفة " ان التشبيه اذا كان صريحا (بالكاف) (ومثل) كان الأعرف الأشهر في المشبه به أن يكون معرفة ؛ كقولك : هو كالأسد – وهو كالشمس – وهو كالبحر وكليث العرين وكالصبح وكالنجم وما شاكل ذلك ، ولا يكاد يجيء نكرة مجيئا يرتضى ، نحو هو كأسد وكبحر وكغيث ، الا أن يخصص بصفة : كبحر زاخر ، فاذا جعلت الاسم المجرور بالكاف معربا بالاعراب الذي يستحقه الخبر من الرفع والنصب كان كلا الأمرين – التعريف والتنكير – فيه حسنا جميلا . تقول: زيد الأسد والشمس والبدر والبحر . وزيد أسد وشمس وبدر وبحر "(١٩) فعبدالقاهر لاحظ فرقا بين قولنا " هو كالأسد " و" هو كأسد" على مستوى كون المشبه به معرفة أو نكرة ، دون مراعاة وظيفة الأداة في التشبيه ، ويبدو أن وجهة نظرة صحيحة ، وان لم يفسرها، فكلمة (أسد) عندما نعرفها فان التعريف يزيد المعنى قوة ، لان المشبه تحكمه

١٧- عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، ص ٢١٣.

١٨- الخطيب ، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني : التلخيص في علوم البلاغة،ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي ، ط دار الكتاب العربي – بيروت ، أنظر ص ٢٨٤،٢٨٥

١٩- الجرجاني : أسرار البلاغه ، ص ٢٢٧، ٢٢٨ .

علاقة مع مشبه به معروف ، أما عدم وجود أداة التعريف فانه يعني " أي أسد" بمواصفات قد نعرفها فيه وقد لا نعرفها ، وقد يكون هذا الأسد غير الأسد المعروف من حيث صفات الشجاعة المشهورة فيه، والقوة المعروفه عنه .

ووظيفة الأداة في مثل هذا التشبيه لا علاقة لها بال التعريف ، لأن وجود الأداة مع قولنا هو (كالأسد) أو هو (كأسد)لم يغير شيئا - من وجهة نظر عبد القاهر - بينما حذف الأداة مع وجود ال التعريف في المشبه به يزيد المعنى قوة " فان هو قال: زيد كالأسد كان قد أثبت له حظا ظاهرا في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، واذ قال هو الأسد ، تناهى في الدعوى اما قريبا من المحق لفرط بسالة الرجل، واما متجوزا في القول فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئا " .(٢٠) ولم يوضح قيمة (ال) التعريف مع التشبيه المحذوف الأداة ، وما هو الفرق بين قولنا هو الأسد ، وهو أسد . واذا كان التشبيه لا يحسن في قولنا (زيد كأسد) ، فانه يأتي حسنا في قولنا (زيد أسد) ، فالاسم النكرة هنا جاء مقبولا ، ولكن مع حذف أداة التشبيه ، بينما لم يحسن مع أداة التشبيه في قولنا (زيد كأسد) ، ولم يوضح عبد القاهر سبب ذلك ، واكتفى بتحسين التشبيه أو تقبيحه اعتمادا على ظاهر التشبيه دون الالتفات الى المعنى؛ فالأداة لها وظيفتها في كلا التشبيهين ، ولها علاقتها بالمعنى ، سواء ذكرت أم حذفت ؛ لأن قولنا (هو أسد) داخل في دائرة التشبيه البليغ ، وكذلك (هو الأسد)، وقولنا (هو أسد) يختلف بطبيعة الحال عن قولنا (هو كأسد) ، لأن الأولى أعطتنا تأكيدا على معنى الشجاعة المعطى للمشبه ، بينما أضعفت أداة التشبيه في الثانية المعنى المقصود عندما باعدت بين المشبه والمشبه به ، وأضافت الى المشبه به احتمالات غير معروفه ، فهو كأسد أياً كان هذا الأسد . ويزداد المعنى قوة مع وجود (الأداة) و (ال) التعريف في التشبيه ، نحو قولنا " هو كالأسد " .

٢- المرجع السابق ، ص ٢٣١،٢٣٢ .

فالأسد هنا هو المعروف ، وقد حققت (ال) التعريف الشهرة المقصودة فيه ، بحيث لا يشك في صفات الشجاعة والقوة المعروفة عنه .

ومع وجود الأداة في التشبيه ، فاننا لا نقصد اعطاء المشبه كل صفات المشبه به ، على نحو ما نقول (أنت كالليل) فاذا حذفت الأداة فقلنا (أنت ليل) أو (الليل) ، فهذا يعني اطباق الليل على المشبه ، ومساواة الطرفين في أمور كثيرة قد لا يريدها القائل تحديدا، ومن هنا يكون للأداة وظيفة في ابراز المعنى، فهي تأتي عندما لا يريد القائل احداث مساواة بين طرفي التشبيه ، لأن مثل هذه المساواة تبتعد بالتشبيه عن الغرض ، وقد يصبح التشبيه سلبيا ، لأن جعل الممدوح ليلا يعني وصفه بصفات ايجابية وسلبية موجودة في الليل . ومثل هذا في قولنا(هو بحر) فجعل المشبه بحرا من دون أداة تشبيه ، يعطي المشبه كل الصفات الموجودة في البحر من ملوحة وهيجان وضجيج .. وما شابه ذلك ، وقد تكون هذه الصفات غير واردة في الحسبان عند التشبيه ، ويزداد الأمر تعقيدا في تشبيهات غير متداولة ، فنحن نعرف أن المقصود من التشبيه بالبحر هو الكرم ، ولكن اذا حذفت الأداة في تشبيه غير متداول اصلا ، فان المشبه يكتسب صفات المشبه به– اذا لم يذكر وجه الشبه – مما يجعل التشبيه أكثر غموضا . أما الذي يقيد هذه الصفات فهو وجود (الأداة) ، لأن المشبه يشترك مع المشبه به في بعض صفاته ، ولا يقترب منه الى درجة التشابه.

وناقش عبد القاهر العلاقة التي تجمع بين المشبه والمشبه به في قول النابغة " فانك كالليل الذي هو مدركي " فاذا حذفت الأداة تحققت المبالغة المطلوبة من التشبيه ، " فان قلت : تلك الصفة الظلمة وأنه قصد شدة سخطه وراعى حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم في عينيه ... وحرف التشبيه مذكور داخل على الليل كما تراه في البيت ، فأما وأنت تريد المبالغة فلا يجيء لك ذلك ، لأن الصفات المذكورة لا يواجه بها الممدوحون ، ولا تستعار الأسماء الدالة عليها لهم الا بعد أن تتدارك وتقرن اليها أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله : " أنت الصاب والعسل " ولا تقول وأنت مادح : أنت الصاب،

وتسكت ، وحتى ان الحاذق لا يرضى بهذا الاحتراز وحده حتى يزيد ويحتال في دفع ما يغشى النفس من الكراهة باطلاق الصفة التي ليست من الصفات المحبوبة فيصل بالكلام ما يخرج به الى نوع من المدح " (٢١)

٣) دلالة الأداة في التشبيه :-

أ- في الموروث البلاغي :

فقد وردت بعض الملاحظات في كتب البلاغة العربية القديمة التي تكشف عن محاولات فهم علاقة الأداة بالمعنى الذي يشكله التشبيه ، وهي ملاحظات جزئية غير مستوفاه ، نجد بعضها عند ابن طباطبا الذي دعا الى ضرورة التعمق في التشبيه ، وعدم الوقوف على مظهره الخارجي ، فان كان التشبيه غير مقبول ، فهو يحتاج الى مزيد من التأمل والبحث من أجل الوصول الى الغرض منه " فاذا اتفق لك في اشعار العرب التي يحتج بها ، تشبيه لا تتلقاه بالقبول ، أو حكاية تستغربها فابحث عنه ونقر عن معناه ، فانك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة اذا أثرتها عرفت فضل القوم بها ، وعلمت أنهم أدق طبعا من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته" (٢٢) وقد تنبه ابن طباطبا الى علاقة الأداة بصدق التشبيه ، وربط بين الأداة وطريقة التعبير عن المعنى المقصود " فما كان من التشبيه صادقا قلت في وصفه كأنه ، أو قلت ككذا ، وما قارب الصدق قلت فيه تراه أو تخاله أو يكاد " (٢٣).وربط ابن رشيق القيرواني بين أداة التشبيه

٢١- المرجع السابق ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣.

٢٢- ابن طباطبا ، محمد بن أحمد العلوي : عيار الشعر ، تحقيق وتعليق دكتور طه الحاجري ، دكتور محمد زغلول سلام ، ط ، المكتبة التجارية – القاهرة ١٩٥٦،ص١١.

٢٣- المرجع السابق ، ص ٢٣.

(الكاف) والتقريب في الصفة بين المشبه والمشبه به " فقد يشبهون الشيء بسميه ونظيره من غير جنسه كقولهم عين كعين المهاة، وجيد كجيد الريم ، فاسم العين واقع على هذه الجارحة من الانسان والمهاة ، واسم الجيد واقع على هذا العضو من الانسان والريم ، والكاف للمقاربه ، وانما يريدون أن هذه العين لكثرة سوادها قاربت أن تكون سوداء كلها كعين المهاة، وأن هذا الجيد لانتصابه وطوله كجيد الريم " .(٢٤)

ويعلق في موضع آخر من كتابه على قول أبي الفتح البستي ، شاعر مصر في زمانه:

قد شابهتني في لون وفي قضف وفي احتراق وفي دمع وفي سهر

" فقوله - قد شابهتني - أظهر مقدرة من المجيء بالكاف لأنهم انما استصعبوا ذلك مع الكاف وأخواتها من جهة ضيق الكلام بها ، فهذا الذي أتى به البستي أشد ضيقا ، ألا ترى أنه لوقال كأنها أنا لكان هو الصواب ، ويكون قد أتى بكأن وضميرين بعدها فضلا عن الكاف " (٢٥) فهو يفرق بين أدوات التشبيه في الفعل (شابه) و (الكاف) و (كأن) ، ويرى أنه لو أتى بأداة التشبيه (كأن) لكان ذلك الصواب ، اذ أن (شابه) أكثر ضيقا في الكلام من (كأن) ، ويواصل تأكيده على الفكرة التي طرحها ، معتمدا المظهر الشكلي ؛ فمع (كأن) يكون الشاعر قد أتى بضميرين والكاف ، دون ملاحظة علاقة ذلك بالمعنى الذي يصاحب عملية التشبيه في كلتا الأداتين .وفي محاولة فهم بلاغة التشبيه من خلال علاقته بالأداة ، ذهب ابن الأثير الى " أن التشبيه المضمر ابلغ من التشبيه المظهر وأوجز. أما كونه ابلغ فلجعل المشبه مشبها به من غير واسطة أداة ، فيكون هو اياه ، فانك اذا قلت : " زيد أسد" كنت قد جعلته أسدامن غير إظهار أداة التشبيه ، وأما كونه أوجز فلحذف أداة التشبيه منه".(٢٦)

٢٤- القيرواني : العمدة ، ١/٢٠٠

٢٥- المرجع السابق ، ص ٢٠٥/٢٠٦

٢٦- ابن الأثير ، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ط نهضة مصر ، الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م ٢/١٢٢.

ب- في دراستنا للمستوى الدلالي للأداة :-

فبعد استعراض ملاحظات القدماء حول هذا الموضوع ، نحاول من خلال دراسة تحليلية فهم المستوى الدلالي للأداة في التشبيه ، وعلاقتها بطرفيه (المشبه والمشبه به) وهنا نلاحظ أن أدوات التشبيه ليست على مستوى واحد في الدلالة ، فهي وان كانت تفيد قرب المشبه من المشبه به، الا أن كل أداة تتميز بدلالات خاصة تميزها عن غيرها ، فالكاف التي هي من أكثر أدوات التشبيه استعمالا ، تأتي عادة في الاستعمالات العادية البسيطة ، وتفيد قرب المشبه من المشبه به ، وبسبب وضعها بين طرفي التشبيه ، فانها لا تفيد المبالغة ، لأن المشبه يظل مستقلا بذاته عن المشبه به ، وتقف (الكاف) حاجزا شكليا ونفسيا بين طرفي التشبيه ، تقرب بين الأطراف ولا تبالغ في العلاقة المشتركة بينهما .

وأكثر ما تستعمل (الكاف) في عقد مقارنات بين أشياء في صفات أو معان تجمع بينها بهدف تحديد درجة الالتقاء والتقارب ، وهي تحمل الى جانب ذلك معاني الافتراق والاختلاف بين الأطراف التي يتشكل منها التشبيه ، لأنها تظهر على مستوى الشكل بعدا بين الطرفين ، وفي الوقت نفسه تؤدي وظيفة التقريب بينهما. وهذا كله يرتبط بالحالة التي يكون عليها الأديب ، والمعنى الذي يتشكل في ذهنه ، فهو عندما يتمثل علاقات غير قوية أو غير متداخلة بين أطراف الصورة ، يعتمد (الكافِ) أداة للتشبيه ، لأنها أنسب في التعبير عن الصورة التي يشكلها ، وقد لا يكون ذلك نتيجة وعي منه بعملية التشكيل ، وانما من خلال ما تفرضه طبيعة العلاقة بين الأطراف المتشكلة في خياله.

وتأتي "(الكاف) في تشبيهات تعتمد – في أغلب الأحيان – علاقات حسية شكلية بين طرفي التشبيه ، وتقوم على أساس عقد مقارنات بين أشياء تشترك في صفات تجمع بينهما ، ويمكن تطبيق ذلك على نماذج من الشعر القديم نختارها من معلقة امرىء القيس، ففي أبيات من معلقته ، يقول فيها:

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش اذا هي نصته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل
وكشح لطيف كالجديل مخصّر وساق كأنبوب السّقيّ المذلل(٢٧)

يقارن بين أمور حسية يتحدث من خلالها عن جيد المرأة وجيد الظبي وعن شعرها الأسود الطويل ، وقنو النخلة ، وكشحها الضامر والجديل المخصر ، وساقها الممتلىء وأنبوب السقي المذلل . وهي تشبيهات تكشف عن جمال المرأة الحسي من خلال مقارنات بينها وبين صور أخرى تعكس الجمال الموجود في المرأة وتقويه .

وفي مراجعة بسيطة للتشبيهات المذكورة ، نجدها تشبيهات مرسلة ، ذكرت فيها (الكاف) أداة للتشبيه ، وقد جاءت لتؤكد وجود العلاقة الحسية بين طرفي التشبيه ، وتكشف عن علاقة الشاعر بالعناصر التي يتشكل منها التشبيه . فهو يقف بين صورة المشبه (المرأة) التي يتحدث عنها ، والمشبه به الذي يتراءى أمامه في صور عدة دون أن يتفاعل مع هذه العناصر التي يشكلها ، فهو يحاول أن يقارب ويقارن - من الناحية الشكلية - بين صورتين حسيتين تعكس فكرة الجمال التي يريد توصيلها الى خيال السامع، وتأكيدها من خلال صور التشبيه التي يرسمها .

واذا عدنا الى صور امرىء القيس ، وحاولنا تحليلها على المستوى الشكلي نجدها تتشكل على النحو الآتي :-

جيد المرأة - الكاف - جيد الرئم

شعرها - الكاف - قنو النخلة

كشحها - الكاف - الجديل المخصر

ساقها - الكاف - أنبوب السقي المذلل

وعلى مستوى التشبيه تتمثل الصور السابقة في المعادلة الآتية :

مشبه - الكاف - مشبه به

٢٧- امرؤ القيس : شرح ديوان امرىء القيس ، ط دار صادر - بيروت بدون تاريخ ، ص٤٤، ٤٥

ومن خلال موقف الشاعر يمكن تمثلها على النحو التالي :-

المرأة – الشاعر – عناصر الجمال الأخرى

فالكاف في التشبيه تقابل موقف الشاعر من العناصر التي يتشكل منها التشبيه ، والشاعر يقف موقفا وسطا بين المشبه (المرأة) والمشبه به (عناصر الجمال الأخرى) وهو يعقد مقارنة بين هذين الطرفين دون أن تظهر علاقته بهما وجدانيا وعاطفيا ، أي أن الشاعر ظل طرفا منفصلا في هذا التشكيل , وقد جاءت (الكاف) تعبيرا عن هذا الموقف ، فهي تفصل بين طرفي التشبيه ، وتظهر على المستوى الشكلي الحاجز القائم بين المشبه والمشبه به ، وهو أمر يعود الى تباعد طرفي التشبيه من حيث علاقتهما بالشاعر أولا ، ثم من خلال التركيب القائم في الصورة بعد ذلك .

وتأتي الكاف في مواضع أخرى من التشبيه لتعكس معاني مغايرة في اطار دلالات جديدة غير تلك التي لاحظناها في موضع المقارنات الحسية . فهي تأتي في موضع المقابلة بين أمور لا يقصد بها التشبيه الحرفي ،وانما نفي وجود الشبه بين الطرفين. وتأتي الكاف لتفصل بينهما ، وتؤكد فكرة بعد كل طرف من طرفي التشبيه عن الآخر ، وبقائه في دائرة المقارنة التي تؤكد رفض مساواة المشبه مع المشبه به ، وهنا يمكن تطبيق ذلك على نماذج نختارها من القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى : " أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار"(٢٨)وكقوله تعالى : " أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستون " .(٢٩)

فالكاف في التشبيهات السابقة أقامت علاقة مقارنة بين طرفين مختلفين بهدف اظهار التباين بينهما ، وقد جاءت فاصلا شكليا ومعنويا بين هذين الطرفين ، على نحو ما نلاحظ :

٢٨- سورة ص ، الآية ٢٨

٢٩- سورة السجدة ، الآية ١٨

الذين آمنوا وعملوا الصالحات – الكاف – المفسدون في الأرض

المتقون – الكاف – الفجار

المؤمن – الكاف – الفاسق

فالبعد على مستوى (الشكل) واضح ببين الطرفين المقارنين اللذين تفصل بينهما (الكاف)، وقد اقترن التشبيه بالاستفهام الذي يؤكد بعد المسافة بين المشبه والمشبه به ، ويقوي معنى التباين والافتراق الذي رسخته أداة التشبيه من خلال وضعها في التشبيه ، وعلاقتها بالطرفين . وقد وضع التشبيه (المشبه) في دائرة الاهتمام مقارنة مع المشبه به الذي جاء بعيدا عنه مع فاصل هو (الأداة). ولنا أن نتصور وجود أداة أخرى مثل (كأن) في مثل هذا التشبيه لنرى كيف يتصل المشبه مع المشبه به ، وهو أمر لا تريده الآيات السابقة ، ولا يناسب المعنى القائم فيها ، فعلى سبيل المثال في قوله تعالى : " أم نجعل المتقين كالفجار " يأتي التشبيه مع (كأن)على النحو الآتي :

كأن – هم – فجار

فالتقارب بين (هم) التي تعود على المتقين (والفجار) أمر لا يناسب انمعنى الذي تريده الآية القرآنية السابقة .

وتأتي الكاف في مواضع أخرى للتأكيد على معنى المساواة بين طرفي التشبيه وهذا يستدعي وضع المشبه ازاء المشبه به ، مع فاصل بينهما للتأكيد على فكرة المساواة في الشبه ، على نحو ما نجد في قوله تعالى : " فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا " (٣٠) ولا تعني المساواة وصولهما الى درجة التشابه والاتحاد في الجزئيات والتفاصيل ، وقد عكست (الكاف) هذا المعنى ، وأبقت على الخلاف بين الطرفين ، حتى لا يظن أنهما قد اتحدا في كل ما بينهما من صفات

٣٠- سورة التوبه ، الآية ٦٩.

ومعان مشتركة . ويمكن النظر الى التشبيه على النحو الآتي :

استمتعتم بخلاقكم – ك – استمتعوا بخلاقهم

خضتم – ك – الذي خاضوا

فالأمر لا يتعلق بمشابهة ، وانما بمساواة بين الطرفين في أمر مشترك يتساويان في عمومياته ، وليس في خصوصياته . ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم أيضا :" انا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا " (٣١) وقوله تعالى : " ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة " (٣٢)

ويأتي المشبه به بعد أداة التشبيه (الكاف) في أكثر من صورة ، بحيث يفيد تقريب الوصف، وتوضيح المعنى المراد . على نحو ما نجد في قوله تعالى : " ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة " (٣٣) فالمشبه به مع أداة التشبيه (الكاف) جاء على صورة تدريج في تقديم المعنى وتطويره ، بحيث يصل التشبيه الى غايته بعد اكتمال صورة المشبه به . وقد ساعدت الأداة هنا على هذا التطوير من خلال فصلها بين المشبه والمشبه به وجعل المشبه به يأخذ وضعا يسمح له أن يتطور ، للتأكيد على المعنى المقصود ، على نحو ما نلاحظ في هذا التركيب :

قلوبكم – ك – حجارة – أشد قسوة

مشبه – ألأداة – مشبه به

ويماثل أداة التشبيه (الكاف) أدوات أخرى ، تعكس – في أغلب الأحيان – دلالات مشابهة لتلك التي لاحظناها مع (الكاف) غير أنها أقل استعمالا في صور التشبيه ، ولهذا نكتفي بالحديث عن (الكاف) ثم نقارنها مع (كأن)على اعتبار أنهما أكثر أدوات

٣١- سورة المزمل ، الآية ١٥

٣٢- سورة الأنعام ، الآية ٩٤

٣٣- سورة البقرة ، الآية ٧٤

التشبيه استعمالا ، وعلى اعتبار أن (الكاف) تأتي وسطا بين المشبه والمشبه به ، و (كأن) تأتي قبل المشبه ، وهكذا باقي أدوات التشبيه .

أما أداة التشبيه (كأن) المكونة من (الكاف) و (ان) التي فتحت همزتها بعد دخول الكاف عليها ، فانها تأتي قبل المشبه ، بمعنى وجود المشبه الى جانب المشبه به دون فاصل بينهما ، وهذا يمثل مرحلة أكثر عمقا في عملية التشبيه ، اذ أن الكاف تقترن (بأن) التي تؤكد قوة العلاقة وخصوصيتها بين المشبه والمشبه به، وتجمع بينهما في تركيب جديد يعكس عمق احساس المتكلم بهما . فهذا التأكيد على قوة العلاقة بينهما على مستوى المعنى والشكل يصاحبه احساس مماثل في نفس المتكلم ، الذي لا يريد أن يعقد مجرد مقارنة بين طرفين تجمعهما صفات مشتركة ، وانما يقوي العلاقة ويؤكدها من خلال احساس داخلي متميز يجمع بين هذه العناصر ويداخل بينها .

وغالبا ما تأتي أداة التشبيه (كأن) في تشبيهات تتشكل من عناصر ذات دلالات معنوية أو حسية ترتبط بوجدان المتكلم ، فلا يقصد بها مجرد مقارنة أو تدرج في المعنى أو تقريب في الوصف، كما لاحظنا في التشبيهات السابقة التي اعتمدت (الكاف) أداة للتشبيه فيها .

ولاقتراب المشبه من المشبه به في التشبيهات التي تكون (كأن) أداة للتشبيه فيها ، يتوهم السامع أن المشبه هو عين المشبه به ، وهذا الاحساس لا يصاحب السامع فقط ، وانما يأتي في مرحلة سابقة عند المتكلم الذي اعتمد هذا التشكيل في عملية التشبيه ، فبلقيس عندما سئلت عن عرشها " أهكذا عرشك ؟" قالت معتمدة أسلوب التشبيه "كأنه هو " (٣٤) فاستخدمت (كأن) في تشبيه عرشها بما رأت ، للدلالة على قرب المشبه من المشبه به في احساسها ، حتى التبس عليها الأمر ، فلم تعد تفرق بين الاثنين ؛ واذا عدنا الى التشبيه ، وجدناه يتشكل على النحو الآتي :

٣٤- سورة النمل ، الآية ٤٢.

أداة التشبيه – المشبه – المشـــبه به

كأن – الهاء العائدة على عرشها – هو

وعلى مستوى المتكلم :

بلقيس – (عرشها – ما رأت)

الأداة – المشبه – المشبه به

فعرشها يشبه ما ترى ، حتى كأنه هو ، وقد تقارب الأمران في خيالها وانعكس ذلك على طريقة تشكيلها للتشبيه ، وعلاقة المشبه مع المشبه به. ومثل هذا أيضا في قوله تعالى : " الزجاجة كأنها كوكب دري " (٣٥) فالعلاقة بينهما علاقة مشابهة في صفات مشتركة يقترب فيها المشبه من المشبه به ، ولهذا وضع الاثنان الى جانب بعضهما .

وتوكد أداة التشبيه (كأن) على قوة العلاقة بين طرفي التشبيه ، فأصلها – كما أشرنا سابقا – (الكاف) و (ان) التي هي للتأكيد ، ومعنى ذلك أن الكاف تتبع بتوكيد لفظي يقوي معنى المشابهة ، ويزيد من قرب المشبه من المشبه به ، ليس على مستوى الشكل ، وانما من خلال ادراك واع لعلاقة الأطراف في التشبيه يتمثل في طريقة تشكيله ، ونوع الأداة المستخدمة فيه . وقد أشار الى مثل ذلك عبد القاهر الجرجاني عندما فرق بين أدوات التشبيه وعلاقتها بالمعنى " فانك تقول : زيد كالأسد أو مثل الأسد أو شبيه بالأسد : فتجد ذلك كله تشبيها غفلا ساذجا ، ثم تقول: كأن زيدا الأسد . فيكون تشبيها أيضا ، الا أنك ترى بينه وبين الأول بونا بعيدا لأنك ترى صورة خاصة وتجدك قد فخمت المعنى وزدت فيه بأن أفدت أنه من الشجاعة وشدة البطش ، وأن قلبه قلب لا يخامره الذعر ولا يدخله الروع بحيث يتوهم أنه الأسد بعينه " (٣٦) (فالكاف) لا تؤدي الغرض الذي تؤديه أداة التشبيه (كأن) من حيث قوة المعنى والدلالة عليه ، وان كان الأمر يتعلق بالتشبيه بشكل عام ، فان

٣٥- سورة النور ، ا.لآية ٣٥.

٣٦- الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الاعجاز، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا ، ط مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، الطبعة السادسة ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م،ص ٢٧٠.

المعني لا يؤدى بطريقة واحدة (فكأن) مع التشبيه السابق جعلت المشبه قريبا من المشبه به ، حتى أن السامع يتوهم أنه الأسد بعينه ، أما (الكاف) فانها تباعد بينهما ،وهنا لانقول على مستوى الشكل فقط ، وانما من حيث دلالته أيضا ، فشكل التشبيه يخضع لعلاقة المتكلم مع العناصر التي يشكلها ، ومدى فهمه للعلاقة القائمة بينهما ، وقربه أو بعده عنها .

وقد وضّح ذلك ابن جني في معرض حديثه عن الكاف وعلاقتها بالتشبيه " ان أصل قولنا : كأن زيدا عمرو ، انما هو ان زيدا كعمرو ، فالكاف هنا تشبيه صريح ، وهي متعلقة بمحذوف ، فكأنك قلت ان زيدا كائن كعمرو ، ثم انهم أرادوا الاهتمام بالتشبيه الذي عليه عقدوا الجملة ، فأزالوا الكاف من وسط الجملة ، وقدموها الى أولها لافراط عنايتهم بالتشبيه ، فلما أدخلوها على "ان" من قبلها وجب فتح انّ ، لأن المكسورة لا يتقدمها حرف الجر ، ولا تقع الا أولا أبدا ، وبقي معنى التشبيه الذي كان فيها وهي متوسطة بحاله فيها وهي متقدمة " (٣٧) فازالة الكاف من وسط التشبيه ، عكس اهتماما زائدا به ، وقرب بين أطرافه ، ولكنه لم يغير من طبيعة التشبيه الذي مثلته الكاف سواء جاءت في وسط التشبيه أو في أوله ، أي أنها بقيت في كلتا الحالتين تؤدي وظيفة الأداة في التشبيه .

وفرق الجرجاني بين أداتي التشبيه (كأن) و(الكاف) في الاستعمال والدلالات على المعاني، فاذا قصدت تشبيه الرجل بالأسد " فتقول : زيد كالأسد . ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول : كأن زيدا الأسد . فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد ، الا أنك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأول وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه وأنه لا يروعه شيء بحيث لا يتميز عن الأسد ولا يقصر عنه حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي ، واذا كان هذا كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق الا بما توخى في نظم اللفظ وترتيبه حيث قدم

٣٧- ابن جني ، أبو الفتح عثمان : سر صناعة الأعراب ، دراسة وتحقيق الدكتور حسن هنداوي ، ط دار القلم – دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، ٣٠٤/١ .

الكاف الى صدر الكلام وركبت مع " ان " (٣٨) فزيادة المعنى وقوته ،جاءت من تقديم أداة التشبيه " الكاف" الى صدر الكلام وتركيبها مع "ان" والحقيقة أن هذا التعبير انما جاء أولا من احساس متميز بعلاقة خاصة بين المشبه والمشبه به ، جعل المتكلم يبتعد بالأداة عن طرفي التشبيه ليقرب بينهما ، فزيد ليس كالأسد - كما في المثال الأول - وانما أوشك أن يكون هو الأسد - كما في المثال الثاني -، وقد ساعدت (كأن) على تحقيق هذا المعنى ، ووضعته وفق الصورة التي تشكلت في نفس المتكلم ، والعلاقة التي رآها قائمة بين طرفي التشبيه .ويسمى التشبيه الذي تحذف منه الأداة دون وجه الشبه (مؤكدا) ، وفيه تظل علاقة المشبه مع المشبه به من حيث قربهما في صورة التشبيه ، كما كانت في التشبيه المرسل الذي تكون فيه (كأن) أداة للتشبيه على نحو ما نلاحظ في التركيب التالي :

مشبه مشبه به

زيد - أسد

أداة تشبيه كأن (زيدا - أسد)

وأداة التشبيه في التشبيه (المؤكد) قائمة في النفس ، وان هي غير موجودة على مستوى شكل التشبيه ، وقد تكون (الكاف) أو (كأن) . ولا يخفى علينا أن(زيدا أسد) هو تشبيه ، وأن الصفة المشتركة بينهما هي الشجاعة ، وكذلك في التشبيه المرسل، ولم تقلل (كأن) من قوة هذه الصفة ، فزيد أسد في الشجاعة أو كأنه كذلك . وفي كلا التشبيهين لم يتحول زيد من (انسان) الى أسد (حيوان) ، وحذف الأداة في التشبيه قرب المشبه من المشبه به في صفة الشجاعة وصفات أخرى ، وفي التشبيه المرسل قربت الأداة بين المشبه والمشبه به في صفة الشجاعة ، ولم تفصل بينهما في هذه الصفة ، وان كانت قد باعدت بينهما في صفات أخرى ، وقد تتبادر الى الذهن في التشبيه الأول . وبذلك تكون (كأن) قد حققت المعنى المقصود بشكل قوي ، لا يقل عما هو موجود في التشبيه الأول ، وأضافت تحديدا في الصفة غير موجود في التشبيه المؤكد .

٣٨- المرجع السابق ، ص ١٧٢

وفي أدوات تشبيه أخرى يتساوى الأمر مع أداتي التشبيه (الكاف) (وكأن) وتحمل بعض أدوات التشبيه دلالات مميزة وهي - كما أشرت سابقا - قليلة الاستعمال ولكن لبعضها ما يميزه من حيث الدلالة ، ففي أدوات نحو : مثل - مثيل - مماثل - شبه - شبيه - مشابه - ضاهي - يضاهي - مضاه.. تتحدد الدلالة فيها وفقا لاعتبارات قائمة بين طرفي التشبيه ، وبخاصة عندما يتساوى الطرفان في الصفات ، فتأتي الأداة لتفيد معنى التسوية والتماثل ، وليس مجرد التشبيه ، وقد ورد مثل ذلك في القرآن الكريم في معرض تحديه للمشركين في قوله تعالى : " قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " (٣٩) ، فليس المقصود ما يشبهه ، وانما ما يساويه ويماثله ، ومثل ذلك أيضا قوله تعالى : " وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل " (٤٠) ، فليس المقصود يشبهون قول الذين كفروا ، وانما يماثلونهم في الكفر ، كأنما يريدون أن يتفوقوا عليهم فيما يقولون من ادعاءات باطلة .

وتأتي أدوات التشبيه (شكل - مشاكل - شاكل) للدلالة على تشابه أمرين في هيئات تكون - في أغلب الأحيان - حسية شكلية ، كأن نقول : المرأة شكل الغزال ، والوجه شاكل القمر أو مشاكل للقمر .... وهكذا .

وختاما لما تقدم فانه يمكن القول ان المستوى الدلالي للأداة في التشبيه يتحدد وفق أمرين : أولهما ، نوع الأداة المثبته في التشبيه ، والثاني وضع الأداة في التشبيه ، وقد تبين أن أداة التشبيه ترتبط بدلالات مختلفة تتوافق واحساس المتكلم بعناصر التشبيه التي يشكلها ، ومدى تأثره بها، وعلاقته معها ، وأنه لا يمكن الفصل بين وضع الأداة في التشبيه ونوعها، وبين احساس المتكلم الداخلي بالتشبيه الذي يشكله .

٣٩- سورة الاسراء ، الآية ٨٨، وانظر سورة البقرة ،الآية ٢٣.

٤٠- سورة التوبه ، الآية ٣٠